نوادر المعارك

اذا كتب المؤرخ تاريخ حرب فاعظم ما يهمهُ ويوجه عنايتهُ اليهِ منها وصف العُدد والعديد وضبط اوقات المعارك وذكر الاسباب والنتائج وغير ذلك مما يفقد التاريخ بهِ جانباً من اللذة والفكاهة فيقرب من العلوم ويبعد عن القصص والحكايات وبذلك يتميز عن الروايات عدا ما كتب منها لتزيين فضيلة او تقبيح رذيلة . ولكنَّ في تاريخ الحروب اموراً قلَّما ينتبه المؤرخ لها فيذكرها وهي لو ذكرت لراد بها التاريخ لذة لانها لهُ كالملح للطعام او كالنغم الموزية في الخطب الجدّية . وانا ذاكرون بعض الامثلة والشواهد على ذلك نقلاً عن ضابط انكليزي شهد كثيراً من المعارك التي جرت في النصف الاخير من القرن الماضي قال :

تعدُّ معركة كونيجراتز التي جرت بين النمسويين والبروسيين سنة ١٨٦٦ من اعظم معارك الحروب الحديثة لان عدد الجنود الذين قاتلوا فيها بلغ ٢٠٠ الف جنديّ او اكثر . وكاد النمسويون يفوزون عن آخرهم لولا استبسال فرقة المدفعية وتضحيتهم مدافعهم ليتمكنوا الجيش من التقهقر بانتظام والوصول الى ڤينّا بسلام

وبينما كان الجيش يجدُّ في السير ليبلغ ڤينا والدفاع عنها من جيوش البروسيين الزاحفين عليها صدرت الاوامر الى كلّ ما في المدينة من المركبات وعربات النقل بالخروج للقاء الجيش النمسوي وحمل جنودهِ استعجالاً لهم . ولم يمضوا الاَّ القليل حتى وصل ٣٠ الف مركبة وعجلة الى ڤينا مزدحمة بالجنود . وفي اثناء ذلك صدر الامر بمحاكمة الجنرال بنداك قائد الجيش في مجلس عسكري لانهُ غرَّر بجيشهِ وجرَّ عليهِ تلك الكسرة المشؤمة . فتوسَّط الامبراطور الحالي في امرهِ واوقف محاكمتهُ على شرط ان يعد بشرفهِ أن يلزم السكوت الى آخر عمرهِ . فنفذ وتوفي بعد ذلك بعشر سنوات والناس يعتقدون انهُ لم يتكلم احداً بكلمة وفاة بوعدهِ سوى امرأتهِ وخادمهِ

ومن غرائب الاتفاق ان قائد الجنود البروسية الذي غلب بنداك كان ملتكي المشهور وقد لقّب بالسكوت وذلك لانهُ قضى عشرين سنة عضواً في مجلس النواب فم يخطب غير خطبة واحدة مؤلفة من كلمة واحدة وهي " اسكتوا " . وبعد معركة كونيجراتز بمدة سنوات زار ملتكي بنداك فجاءهُ بنداك مصافحاً وتمشيا معاً ولكن بنداك لم يفهُ بكلمة وجلسا بعد العشاء يدخنان بالشطرنج كانهما يعيدان ذكرى المعارك القديمة كلَّ ذلك وبنداك ملازم الصمت لا يلفظ سوى الكلمات التي يلفظها لاعبو الشطرنج عادة

وفي هذه الحرب نفسها ارتكب البروسيون غلطة مضحكة في معركة نروتو . وذلك ان احدى الاورط ارسلت طلائعها لتجسس اكواخ ظنت ان قوة من العدو كامنة فيها فاحدقت بها من كل جانب وبقيت مدة طويلة تتفنن في حركاتها العسكرية ثم هاجمتها فاذا في زرائب محلوة خنازير فغنمتها بعد ان قتلت وجرحت نحو ٢٠ خنزيرًا منها في هجومها عليها

ومن خداع المعارك ما فعلهُ عثمان باشا الغازي في معركة بلفنا الثانية فأكسب به جيشهُ النصر فان الامر كان قد صدر الى الروس بالهجوم على حصن عالٍ كان العثمانيون يحتلونهُ ففعلوا وحمل العثمانيون ايضًا عليهم فالتقى الجيشان وكان لالتقائهما صدمة هائلة تطير لها النفوس شعاعًا . واخيرًا جعل العثمانيون يتقهقرون امام الروس فلما رأى عثمان باشا ذلك خشي ان تدور الدائرة على جنودهِ فأمر المدفعية باطلاق مدافعهم على مؤخرة اخوانهم وغرضهُ من ذلك منعهم من التقهقر فنجحت حيلتهُ لان الجنود رأت ان ما تفقدهُ بالهجوم من نيران الروس يقلُّ عما تفقدهُ بالتقهقر من نيران اخوانها فحملت على العدو حملة صادقة كللت بالنصر

وتعدُّ حملة الجنود العثمانية على مضيق شبكا سنة ١٨٧٧ من اعظم الحملات في تاريخ الحروب بالنسبة الى عدد الجنود التي اشتركت فيها . فقد كان عدد الجنود العثمانية ٣٠ الفًا فتقدت ١٧ الفًا منها في ساعات قليلة وكان قائدها سليمان باشا وقائد الروس غوركو . ومن غرائب الاتفاق ان سليمان باشا ارتكب في هذه المعركة ما ارتكبهُ غوركو في معركة بلفنا الرابعة فان كليهما خالف اوامر رئيسهِ وجرى في القتال على خطة رسمها لنفسهِ . اما غوركو فلم يُسأل عمَّا فعل واما سليمان باشا فحوكم امام مجلس عسكري بعد انتهاء الحرب بدعوى ان الروس رشوهُ ليحارب في هذه المعركة ويحاول عبور مضيق شبكا مع علمهِ بان ذلك محالٌ بدلاً من ان يعبر جبال البلقان من مضيق آخر وقد كان ذلك سهلاً عليهِ فلا يفقد رجلاً من رجالهِ . وحكم عليهِ بالقتل ولكن السلطان استبدل الحكم بالنفي المؤبَّد . ومات سليمان باشا بعد ذلك بسنوات قليلة والمقول انهُ انتحر

ومثل هذا جرى لبازين بعد انتهاء الحرب السبعينية بين فرنسا والمانيا فانهُ حوكم امام مجلس عسكري بتهمة انهُ اخذ رشوة من الالمانيين وحكم عليهِ بالاعدام فاستبدل رئيس الجمهورية الحكم بالاشغال الشاقة المؤبدة . ولكن بازين فرَّ من سجنهِ الى مدريد ومات فيها بعد ذلك بسنوات قليلة فقيرًا معدمًا

ومن المعارك المشهورة معركة جبورجينو من معارك حرب القرم سنة ١٨٥٤ جرت بين

الجنود العثمانية وعددها ٥ الاف والروس وعددهم ٢٠ الفاً . وكانت الجنود العثمانية بقيادة قائد كبير السن فلما رأى انهُ لا يستطيع قيادة جنوده نظراً الى كبر سنهِ وضعفهِ عهد في ذلك الى جنديين انكليزيين كانا معهُ وثلاثة مهندسين انكليز اتفق وجودهم هناك حينئذٍ وكان عمر اكبرهم ٣٢ سنة فحملوا على الروس حملة منكرة وهزموهم ونالوا الغلبة . ولما عُلم ما فعلهُ هذا القائد وهو من قبيل انكاره لنفسهِ جائزتهُ دولتهُ ودولة انكلترا ودولة فرنسا تبلغ طائل من المال . وفي الخبر الى القيصر تنولا الاول قال " لقد غلبنا حفنة من الترك يقودهم خمسة من صبيان المدارس " ولم يمضِ على ذلك وقت طويل حتى مرض ومات ويقال ان حزنهُ على ما اصاب جنودهُ في هذه المعركة عجل بموتهِ

ومن النكات المضحكة المبكية ما جرى بين الجنود البلغارية وبعض عصابات اللصوص سنة ١٨٨٥ . وذلك ان اللصوص اعتصموا بقمة احدى الروابي فهاجمها الجنود من جهتين مختلفتين في وقت معاً . ثم سطا ضباب كثيف على الرابية فاغتنم اللصوص الفرصة وانسلوا هاربين تحت جنح والجنود لا تدري من امرهم شيئاً بل ما زالت تصعّد في الرابية من الجهتين حتى بلغت قمتها والتقى الفريقان هناك وكلٌّ منهما يظن الآخر عصابة اللصوص بسبب تكاثف الضباب فاقتتلا وتقاتلا قتالاً شديداً مدة ساعة ولم يكتشفا خطاءهما الاَّ بعد ان قتل وجرح مئات منهما

وجرى مثل هذا الخطاء في حرب البوير الاخيرة . فان الضابط الذي تقدمنا عنهُ معظم ما تقدم كان يقود اورطة انكليزية في مكان اسمهُ بترلي عند نهر الاورنج وكانت فصيلة حرس كولدستريم نازلة في مكان اسمهُ أليوال على بعد ٢٠ ميلاً الى الشمال . فظهر جيش من البوير بقيادة فوشه على ضفة النهر المذكور في منتصف الطريق بين الاورطتين الانكليزيتين وعادت الكشافة من الانكليز تخبر ان البوير يزحفون من جهتين مختلفتين فخرجت الاورطتان الانكليزيتان لقتالهم ولكن البوير انسلوا من اماكنهم تحت جنح الظلام والانكليز لا يدرون بذلك فالتقى فريقاهم ودار القتال بينهم وسقط كثيرون منهم قتلى وجرحى قبلما ادركوا خطاءهم . وكيفما كانت الحرب فليس فيها الاَّ الويل وما هذه النكات القليلة سوى ملح مصبوغة بالدماء